لعبة الحلم والواقع في أدب الحكيم

« مصير صرصار »

بقلم جوزيف طرابيشي

فكرتان (*) تسلطتا على عقل الحكيم في شبابه كالوسواس : ما ادرانا اننا لسنا ، نحن ايضا ، نملا أرقى من النمل المعروف واحط من نمل آخر من جوهر آخر لا نعرف ما هو ؟ واي ميتة شنيعة تنتظر الحب عندما تتحول المرأة من خليلة الى زوجة !

يبدو ان هاتين الفكرتين ارقتا الحكيم طوال حياته المديدة ، الغنية بالانتاج ، وضيقتا عليه الخناق الى حد لم يجد معه بدا ، بعد ان آتم العقد السابع من عمره أو كاد ، من ان يمنحهما متنفسا . وهكذا كانت مسرحية « مصير صرصار » .

مصير صرصار ؟ او مصير انسان ؟ آن النتيجة واحدة ، ما دام الصرصار هو الانسان ، وعلى وجه الدقة الرجل ، والمأساة هي مأساة الانسان ـ الصرصار ، او الانسان المتصرصر . ومنعا لكل التباس يجب ان تشير من الان الى أننا لسنا امام مسرحية رمزية ، لان شخصيات هذه المسرحية هي فعلا صراصير،واحداثها تدور في مملكة الصراصير. وصحيح ان الصرصار هو في خاتمة المطاف رمز الى نمط معين من الانسان ، الانسان المتصرصر ، ولكن الصرصار ايضا صرصار قبل ان يكون رمزا لاي كائن آخر .

ان المسرحية تنفتح على مملكة الصراصير وهي تواجه خطرا داهما : جحافل النمل التي ما تكاد تبصر صرصارا منقلبا على ظهره حتى تنقض عليه وتمزقه آربا اربا وتحمل جثته في موكب الى اوكار تموينها . واخر الفواجع التي حلت بالمملكة ان ابن الوزير :

الوزير : كارثة ! ... كارثة كبرى يا مولاي !

الملك : ما الخبر ؟

الوزير : ابني يا مولاي ... ولدي الوحيد ...

الملك : ما له ؟

الوزير : ذهب مبكيا على شبابه ! مات وهو في ربيع العمر وريعان الصبا ... قتل ... قتل ...

الملك : قتل ؟ ... كيف ؟ ... ومن القاتل ؟

الوزير : النمل ...

الملك : النمل ايضا ؟

الوزير : النمل ... ولا شيء غير النمل ...

الملك : آه من النمل ! ... اخبرنا ماذا حدث ؟

الوزير : حدث الذي يحدث دائما ... كان ابني يسير فوق الحائط لمجرد النزهة والترويح عن النفس ... شأن من في سنه ... كانت نزهة بريئة بالطبع ، لانني اعرف اخلاق ابني جيدا ... انه في منتهى الجد ... لا يميل الى المغازلات ولا الى المغامرات ... كل هذه الانواع من اللهو الفارغ ...

الملك : ما علينا ... ماذا حدث ؟

الوزير : زلت قدمه ووقع على الارض... وقع على ظهره طبعا... ولم يستطع ان ينقلب على وجهه وينهض على اقدامه ... وعندئذ لمحه النمل ... وجاء بجماعاته وجيوشه ، واحاط به ، وكتم انفاسه، وحمله وسار به الى مدنه وقراه (1) ...

نحن بالطبع امام صراصير حقيقية كما قلنا . والصراصير اذا انقلبت على ظهرها لم تستطع نهوضا ، وباتت فريسة لجحافل النمل. وهذا ما حدث لابن الوزير . ولكن ما معنى تلك الاشارات الغامضة في حديث الوزير الى « براءة » نزهة ابنه والى جديته وابتعاده عن المغازلات والمغامرات ؟ وعندما يستدعي الملك عالم الملكة وكاهنها لاستشارتهما في طريقة لدرء خطر النمل ، فيعلنان عجزهما ، افلا يرمز عجزهما الى عجز العلم والدين امام « النمل » ؟ فما هذا النمل الذي يقف العلم والدين عاجزين امامه ؟ ولم كان السبيل الوحيد الى درء خطره هو :

الملكة : انه يأكلنا ... ويجب ان نجد طريقة ندرأ بها ضرره..

الملك : الطريقة الوحيدة هي أن لا تستلقي على ظهرك .

الملكة : هذا اذن عندك هو كل الحل !

الملك : عندنا جميعا (2) ...

واذا ما لاحظنا ان ابن الوزير ، الذكر ، قد « وقع » على ظهره ، اما الملكة ، الانثى ، فالمطلوب منها آلا « تستلقي » على ظهرها استلقاء ، لم يعد عندنا شك في أن المقصود هو الفعل الجنسي . ومن هنا كان النمل نملين : النمل الحقيقي الذي يفترس الصراصير عندما تنقلب على ظهورها ، والنمل الرمزي الذي يفترس رجولة الذكور من الصراصير متمثلا في الفعل الجنسي أو الانثى أو المرأة .

وربما كان من حق القارىء ان يتساءل كيف امكن للحكيم ان يتوصل الى مثل هذه المفارقة ؟ فمعلوم ان رجولة الذكر لا تحقق ذاتها الا من خلال انوثة الانثى ، فكيف يقول الحكيم ان الانوثة تفترس الرجولة ؟ الحق ان كل عالم الحكيم يقوم على هذه المسلمة ، وما كتبناه حتى الان لم يكن آلا محاولة للتدليل على ذلك . ولكن لا بد ان نشير هنا الى ان الحكيم ادخل بعض التعديل على مسلمته تلك في مسرحية « مصير صرصار » . فالانثى التي تفترس الذكر هنا هي على وجه التدقيق الانثى المعاصرة ، الانثى التي ادخل المجتمع الحديث في عقلها انها مساوية للرجل . وهذا ما يتجلى من السطور الاولى في المسرحية:

الملك : قومي ، استيقظي ! ... حان وقت العمل ...

الملكة : دعني وشأني ولا تتعبني !

الملك : يا للكسل ! ... يا للكسل ! ...

الملكة : اني لست نائمة ... ويجب أن تتذكر انه لا بد لي من الزينة والتواليت !

الملك : الزينة والتواليت ! ... آه ... آذا كانت كل الزوجات مثلك فقولي على كل الازواج السلام !

الملكة : انا ملكة ... لا تنس اني ملكة !

الملك : وانا الملك ...

الملكة : انا مثلك سواء بسواء ... لا فرق بيننا في شيء ...

الملك : يوجد فرق ...

الملكة : ما هو هذا الفرق من فضلك ؟

الملك : الشوارب ...

(*) فصل من كتاب « لعبة الحلم والواقع ـ دراسة في ادب توفيق الحكيم » الذي يصدر قريبا عن دار الاداب ـ بيروت .

(1) : « مصير صرصار » ـ مكتبة الاداب ـ ص ١٢ ـ ١٣ .

(2) : المصدر نفسه ـ ص ٥١ ـ ٥٢ .

الملكة : انا لي شوارب كما ان لك شوارب ...

الملك : نعم ... ولكن شواربي أنا أطول من شواربك ...

الملكة : هذا فارق غير ملحوظ ...

الملك : يخيل اليك ...

الملكة : بل يخيل اليك أنت ... خيالك السقيم هو الذي يصور لك دائما وجود فارق بيني وبينك ...

الملك : عندي شعور متزايد بأنك تحاولين دائما الاقلال من قيمتي.

الملكة : قيمتك ؟ (١)

الملك : وسلطاني ... تحاولين دائما الانتقاص من سلطاني ...

الملكة : سلطانك ؟ سلطانك على من ؟.. ليس علي أنا على كل حال ... أنت لست أحسن مني في شيء ... أنت لا تطعمني ولا تسقيني ... أنا التي أطعم نفسي ... كما تطعم أنت نفسك ... أتنكر ذلك ؟

الملك : كل صرصار يسعى الى رزقه بنفسه .

الملكة : اذن انا حرة في أمر نفسي (٢) .

وليس من قبيل الصدفة من هذه الزاوية أن تكون « المناقرة » بين الملك والملكة حول مسألة المساواة بينهما ، قد قادت الملك الى طرح مشكلة النمل ، تلك المشكلة التي وقف أمامها أساطين المملكة مكتوفي الايدي والتي لم يعد الملك قادرا على شيء تجاهها الا أن يتأوه :

الملك : مشكلة النمل !.. آه .. آه ..

الملكة : آه .. آه .. هذا كل ما عندك ؟

ولكن النمل أيضا ، كما قلنا ، نمل حقيقي . وكذلك الصراصير. وهذا ما يتيح للحكيم أن يعرض من جديد فكرته القديمة عن شرط الانسان « النملي » : « لم لا نكون نحن أيضا نملا أرقى من هذا النمل (المعروف لدينا) وأحط من نمل آخر من جوهر آخر لا نعرف ما هو ؟ » (٣) . ومن هذه الزاوية يصبح وضع البشر بالنسبة الى الصراصير كوضع الصراصير بالنسبة الى النمل . وهذا ما يؤكد أكثر من أي شيء آخر « انسانية » الصراصير :

العالم : نحن مخلوقات راقية ...

الملكة : ألا توجد مخلوقات أرقى منا ؟

العالم : لا ... نحن أرقى المخلوقات على الارض ... ان النمل مثلا كل ما يهمه هو الطعام ... أما نحن فيهمنا فوق ذلك المعرفة .

الملكة : المعرفة ؟

العالم : بالطبع ... ان هذه الشوارب الطويلة التي لنا ، لا نستخدمها فقط في لمس الطعام ... بل أحيانا كثيرة نلمس بها أشياء لا تؤكل ... لمجرد تحسس طبيعتها واكتشاف حقيقتها ...

الملكة : فعلا ... فعلا ... لمجرد حب الاستطلاع ...

العالم : نعم ... حب الاستطلاع ... حب المعرفة ... ارادة المعرفة ...

الملك : وتقولين يا عزيزتي الملكة اننا ضعاف الارادة ؟.. نحن أصلب مخلوقات الارض عودا ... هل النمل أقوى منا ؟ مستحيل !.. انه لا يعرفنا ... انه يعرف فقط كيف يأكلنا ... ولكنه لا يعرف من نحن .. من نكون ؟.. هل النمل يعرفنا ؟ هل عنده أدنى فكرة عن حقيقتنا .. عن طبيعتنا ؟ هل يدرك اننا مخلوقات مفكرة ؟ (٤) .

وما أشبه هذه الصراصير في تبجحها برقيها وبقدرتها على المعرفة بالبشر ! وما أشد جهلها وما أعماها عندما تحاول أن تعرف « النواميس الكبرى » وتفسرها بعقلها المحدود متجاهلة انه قد يكون في الكون مخلوق أرقى منها وأوسع عقلا بما لا يقاس ! اننا نضحك ولا شك ، نحن الارقى من الصراصير في المرتبة الحيوانية ، عندما نرى عقلها الصغير يصور لها قدم الانسان جبلا ضخما متحركا ، وكأس الماء المسفوح على مراكز تجمعها مطرا خانقا مبيدا :

العالم : الواقع انه قد لوحظ دوما وجود ارتباط وثيق بين اجتماع عدة صراصير في مكان ، ووقوع كوارث من نوع خاص ...

الوزير : تقصد الجبال المتحركة ...

العالم : بالضبط ... والمطر الخانق المبيد .

الملك : هذا صحيح ... بلغني خبر كوارث من هذا القبيل .

العالم : أصبح هذا مؤكدا اليوم من الوجهة العلمية ... اذا اجتمع عدد من الصراصير في مكان ، وكان وهج الضوء ساطعا ، فسرعان ما تتحرك جبال ليس لها قمم ولا رؤوس فتدوس جماعتنا وتسحقها سحقا ... وفي أحيان أخرى ينهمر علينا رشاش مطر خانق يبيدنا عن آخرنا ...

الملكة : وما سبب ذلك أيها العالم ؟

العالم : ظواهر طبيعية .

الملك : ولماذا لا تحدث هذه الظواهر الطبيعية الا عندما تجتمع عدة صراصير ؟

العالم : لم يتوصل العلم بعد الى تفسير ...

الملك : وما هي حقيقة هذه الجبال المتحركة وهذا المطر الخانق المبيد ؟

الملكة : وهل هذه الجبال المتحركة وهذا المطر الخانق يقصد ابادتنا ؟

العالم : هذه كلها أسئلة لا يمكن الاجابة عليها علميا ...

الملكة : اذن لماذا لا تقع هذه الكوارث الا كلما تجمعنا ؟

العالم : لا أدري يا مولاتي ... كل ما يستطيعه العلم هو فقط تسجيل هذه الظواهر ، وربط العلاقة بينها ، واستخلاص قانون علمي (٥) .

وبالطبع يحق لنا ، امام هذه المناقشة « العلمية » ، أن نسخر من الصراصير . ولكن ألا ينبغي في الوقت نفسه أن نسخر من أنفسنا ؟ ألا ينبغي أن نرى فينا صراصير تتخبط هي الاخرى في حدود عقلها المحدود أمام معجزات الكون اللامحدود ؟ لقد قالها الحكيم في « التعادلية » : ان الانسان عنده ليس سيد هذا الكون ، وهو لا يؤيد « فكرة وحدة الانسان أو حريته المطلقة في هذا الكون » ، وعلى الانسان أن يعرف حدود ارادته وحريته :

« ارادة الانسان عندي حرة في حدود خاصة ، وهذه الحدود هي قوانين وليست ارادات طاغية ، هي نواميس وليست مصادفات طارئة ... فالانسان عندي عاجز حقا أمام مصيره في النهاية ... هذا المصير الذي تدفع اليه قوانين ونواميس يحاول دائما أن يتخطاها او يتحداها » (٦) .

ومن هنا يتكشف الوجه الاخر للانسان المتصرصر : الانسان العاجز بعقله المحدود عن ادراك المعرفة الكاملة ، عجز الصرصار عن ادراك حقيقة الجبال المتحركة والمطر الخانق المبيد ! وبذلك يكون الحكيم قد أصاب ، باعتماده رمز الصرصار ، عصفورين بحجر واحد. ولقد شاءت براعة الحكيم ، بل لا نتوانى في القول : شاءت عبقرية الحكيم أن يسقط العصفوران ، الوجهان الاثنان للانسان المتصرصر ، في مكان واحد هو حوض الحمام (البانيو) .فقد أخبر الصرصار العالم بقية أهل البلاط بأنه اكتشف هوة سحيقة ، بل بحيرة كبيرة عجيبة من نوعها « أحيانا تخلو من الماء وأحيانا تمتلىء بالماء » وتكون جدرانها « ملساء بيضاء بياضا ناصعا » عندما تكون جافة ... ويبدي الصرصار الملك ، مدفوعا بحب المعرفة ، رغبته في مشاهدة

---

(١) : لنلاحظ براعة الحكيم في الحوار ، اذ تمكن من اتباع « قيمة الملك » أي الذكر بعلامة استفهام .

(٢) « : مصير صرصار » ـ ص ٥ .

(٣) : « من البرج العاجي » ـ ص ٢٠ .

(٤) : « مصير صرصار » ـ ص ٤٩ ـ ٥١ .

(٥) : المصدر نفسه ، ص ٢٦ ـ ٢٨ .

(٦) : « التعادلية » ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

البحيرة ، أي حوض الحمام . وبالفعل يتسلق الملك جدار الحوض لينظر الى البحيرة من عل ... فاذا بقدمه تزل ويسقط في الحوض الجاف ، ويشرع ببذل جهود جبارة باطلة لتسلق جدران الحوض الملساء والنجاة بنفسه . وعندما يهم أهل البلاط بالتحرك لانقاذ مليكهم ، يهتف بهم العالم :

ـ لا أحد يستطيع ... انه في أعماق الهوة .. والجدران ملساء .. تنزلق عليها الاقدام .. لن ينقذه أحد الا نفسه ، الا مجهوده هو .. أو معجزة من السماء (١) !

في أعماق الهوة ؟ أي هوة ؟ انها أولا وبلا ريب حوض الحمام ، الهوة التي دفع بالصرصار اليها حب المعرفة . ولكن كما ان الصرصار هو أكثر من صرصار ، كذلك فان حوض الحمام هو اكثر من حوض حمام . وانما من ازدواجية الصرصار يستمد حوض الحمام ازدواجيته . ان حوض الحمام هو حوض حمام بقدر ما ان الصرصار هو صرصار . وحوض الحمام هو أكثر من حوض حمام ، هو رمز ، بقدر ما ان الصرصار هو أكثر من صرصار ، أي بقدر ما انه رمز . ولكن ألام يرمز حوض الحمام ؟ الى رحم المرأة ، كما يقول لنا شكله وكما يقول لنا علم النفس التحليلي في آن واحد (٢) . وجهاد الصرصار للخروج من الحوض هو هو جهاد الرجل للخروج من سجن المرأة ، ذلك السجن الذي لا يستطيع خروجا منه الا بالاعتماد على نفسه وحده ، أو بمعجزة من السماء ، معجزة تبدل النواميس التي وضعت فينا وتستأصل الغريزة الجنسية من الجذور .

واذا كان ما يزال يخامر نفوسنا بعض الشك في حقيقة السقطة وفي حقيقة الجهاد للنهوض منها ، فليس علينا الا أن ننتقل الى الفصل الثاني من المسرحية لنرى كيف يتجسد الرمز وكيف يكافح الانسان المتصرصر لانقاذ رجولته مثلما كافح الصرصار المتانس في الفصل الاول .

ان الفصل الثاني ، وان كان لا يدور في مملكة الصراصير وانما في مملكة الانسان ، ينفتح مع ذلك على نفس ما انفتح عليه الفصل الاول : حجرة نوم وجدال بين الزوجين حول ساعة الاستيقاظ :

سامية : استيقظت يا عادل ؟

عادل : طبعا .

سامية : هل رن جرس المنبه ؟

عادل : لا طبعا .. قمت من تلقاء نفسي كالعادة ...

سامية : عجيب أمر هذا المنبه !.. ألم نضبطه معا قبل النوم على السادسة ؟

عادل : ضبطناه ... كالعادة كل ليلة ... لكنه ينتظر حتى استيقظ انا بنفسي ثم يرن (٣) .

وكما تذرعت أنثى الصرصار بزينتها وتواليتها لتبرر تأخرها عن ميعاد العمل ، كذلك تتذرع سامية بهما لتبرر حقها بالدخول الى الحمام قبل زوجها مع انه نهض قبلها . واذا كان الصرصار قد أشار الى طول شاربه كعلامة مميزة له عن أنثاه ، كذلك يشير عادل الى ذقنه التي عليه أن يحلقها قبل الذهاب الى المصنع . وأخيرا اذا كانت أنثى الصرصار قد تحججت بالمساواة لانها تطعم نفسها بنفسها ، كذلك تفعل سامية :

سامية : الى أين ذاهب ؟

عادل : الى الحمام طبعا ...

سامية (تقفز من السرير) : أبعد من فضلك ... أنا أولا ...

عادل : نعم ، كالعادة ... أنا أنهض قبلك ... وأنت التي تدخلين الحمام قبلي !

سامية : هذه هي الاصول !

عادل : أي أصول ؟.. أنا قمت من النوم قبلك ، لا بد أدخل الحمام قبلك ... لن أتهاون في حقوقي بعد اليوم !

سامية : كل يوم تقول ذلك ... أسطوانة سمعتها كثيرا !

عادل : لانه حقي !.. حقي يا ناس !

سامية : أبعد ... لا نضيع وقتي ... أنا أدخل قبلك لان عملي يدعوني ...

عادل : عملك ؟.. وهل أنا عاطل ؟.. اذا كنت أنت موظفة في شركة فأنا موظف مثلك في نفس الشركة ... واذا كنت مستعجلة، فأنا مستعجل مثلك ... ثم أنا لي ذقن يجب أن أحلقها وأنت ليس لك ذقن ...

سامية : عندي ما هو أهم من الذقن !

عادل : ما هو هذا الاهم ؟

سامية : التواليت يا استاذ !.. لا بد لي من الزينة والتواليت ، وأنت لا تعمل لا زينة ولا تواليت (٤) !

وبعد ذلك تبدأ سلسلة لا متناهية من الاوامر . أوامر سخيفة شأن كل الاوامر التي تستطيع أنثى ان تصدرها الى الرجل : لا تنس يا عادل أن تتصل بالشركة ليرسلوا لنا أنبوبة غاز ! افتح الراديو ، لا افتح الحنفية ي امسك الابرة والخيط وركب أزرار قميصك ! جهز لنا الفطور ! اذهب الى المطبخ وضع اللبن على النار ! أدر مفتاح الغاز ! ناولني البشكير ، والبرنس أيضا ، وزجاجة الكولونيا ، وعلبة البودرة ، و ... و ... باختصار ، انها الصورة الخالدة لاومفال ، ملكة ليديا ، التي تزوجت من هرقل بعد أن ارغمته على الجلوس عند قدميها ليغزل كما تفعل النساء . وقد لا يشبه عادل هرقلا من حيث القوة في البداية ، ولكنه يشبهه حتما في النهاية والمصير : الانتهاء عند قدمي امرأة وفي يده المغزل ، تلك الآلة المؤنثة منذ أن كانت البشرية . والفارق الوحيد بين الاسطورة اليونانية وبين الاسطورة الحديثة التي يرويها عادل في « مصير صرصار » هو ان صورة المغزل قد استبدلت بصورة صرصار . وبالفعل ، وبينما كانت سامية تهم بمغادرة الحمام وقع نظرها على الصرصار الذي سقط في الحوض في الفصل الاول ، فتطلق صيحة ذعر وتستنجد بعادل . ويستشف القارىء من جديد رمز الجنس الذي يدور بينهما :

سامية : يجب تنظيف الحوض حالا ... لكن قبل ذلك لا بد من قتله ...

عادل : قتله ؟

سامية : بسرعة .

عادل : وأنا الذي سأتولى قتله ؟

سامية : طبعا .

عادل : طبعا ... لكن انظري ... انه سيخرج من تلقاء نفسه .

سامية : اذا خرج من تلقاء نفسه يكون أحسن ... لان قتله داخل الحوض يوسخ الحوض (٥) ...

وبدءا من هذه اللحظة يأخذ الصوت التراجيدي بالارتفاع . فالصرصار يكافح للخروج ، ولكن ملاسة الجدران تسقطه في كل مرة . انه الاصرار على كفاح لا أمل فيه ، كفاح عدم الجدوى أمام قوة لا قبل للانسان بها . انها العظمة في المأساة . ولقد أراد الحكيم ، كما قال في المقدمة ، أن تكون مسرحيته مأساة ، مأساة الرجولة

ـ التتمة على الصفحة ٥٩ ـ

---

(١) « مصير صرصار » ـ ص ٦٠ .

(٢) : يعود للدكتور لويس مرقص الفضل في الكشف عن المضمون الجنسي للحوض . أنظر مجلة « المسرح » ـ كانون الاول ١٩٦٥ ـ ص ٤٢ ـ ٤٦ .

(٣) : « مصير صرصار » ـ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٤) : المصدر نفسه ـ ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٥) : « مصير صرصار » ـ ص ٨٤ ـ ٨٥ .

مصير صرصار

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٠ ـ

المكافحة لاستعادة نفسها ، ولكن بلا جدوى ... شأن كل كفاح تراجيدي :

عادل : انه ما زال يتسلق ...

سامية : وما زال يسقط أيضا ...

عادل : نعم ... يتسلق ، ثم يتدحرج ، ثم يسقط ... لاحظي الحركة ... تسلق ، ثم انزلاق ، ثم تدحرج ، ثم سقوط الى قاع الحوض ...

سامية : تسلق ثم تزحلق ثم تدحرج ... ثم سقوط الى قاع الحوض ...

عادل : تمام ... ثم المعاودة من جديد ... بدون راحة ... بدون هدنة ...

سامية : الى متى ؟

عادل : لا نستطيع ، لا أنا ولا أنت ، أن نقرر متى ؟ هذا يتوقف على ارادته هو ... وهو حتى الآن لا يبدو عليه نية الكف عن المحاولة (١) .

هذا الكفاح الذي لا أمل فيه من جانب الصرصار المتأنسن يجد فيه عادل ، ذلك الانسان المتصرصر ، أو بتعبير أدق ذلك الرجل الذي حطت به انشاء آلى مرتبة الصرصار ، يجد فيه خير تعبير عن كفاحه الذي لا أمل فيه هو الآخر . كفاح ضد قوة لا قبل له بها . كفاح للخروج من رحم المرأة ، ذلك الكفاح الذي يبدأه الرجل وهو ما يزال بعد نطفة ويظل يخوضه الى أن يضمه الرحم الآخر والاخير ، رحم الارض بجدرانه الملساء هو أيضا .

ومن هنا كان التوحد الذي يكتشف عادل انه قائم بينه وبين الصرصار . ولهذا يسرع الى حبس نفسه مع الصرصار في الحمام حيث يعلن تمرده ، تماما كما يفعل كل متمرد عندما يلوذ بمنطقة حصينة منيعة .

وتثور ثائرة سامية وتهدده وتنذره بأن يخرج والا حطمت باب الحمام ، ولكن بلا جدوى . ويدور الحوار التالي بين سامية والطباخة :

سامية : انه دائما يعرضني معه الى مثل هذه المحرجات ... ولولا اني دائما بجواره ، أنقذه وأقوده ، لوقع في أخطاء كثيرة ...

الطباخة : ربنا يحميك ويقويك !

سامية : انه دائما يطيعني ... ولا يخالفني أبدا !.. ما الذي جرى له هذا الصباح ؟.. اقول له افتح .. افتح .. افتح .. لكن أذن من طين وأذن من عجين !

الطباخة : طول عمره يسمع كلامك !

سامية : الا اليوم ... لا أعرف ماذا حصل له (٢) !

وفي النهاية ، وبعد تشابك الاحداث ، يحضر طبيب الشركة للكشف على عادل بعد أن أبلغ ان عادلا مصاب ببعض التوعك . وكل ذلك وعادل ما يزال في الحمام يتابع كفاح الصرصار :

سامية : افتح يا عادل ... افتح لاشرح لك الموقف ...

عادل : الموقف واضح ... لا يحتاج الى شرح ...

سامية : انت غلطان .. استجد شيء .. الدكتور حضر .

عادل : دكتور ؟.. أحضرت دكتور ؟.. لابادة هذا المسكين ؟.. دكتور حشرات طبعا !!

سامية : حشرات ؟.. ما هذا الكلام ؟.. الدكتور جاء لك أنت . افتح ... الدكتور لك أنت .

عادل : لي أنا ... دكتور حشرات ؟ (٣)

وتحاول سامية أن تموه حقيقة مرض عادل على الطبيب ، ولكن عادلا يصر على اطلاع الطبيب على السبب الحقيقي ، وتحمى المشادة من جديد بين الزوجين ، ويضطر الطبيب الى التدخل :

الدكتور : اسمحوا لي ... أتركوني أنا أعرف الموضوع بنفسي ... أرجوك يا أستاذ عادل ... تفضل على السرير لاكشف عليك ... وأنا أعرف الحقيقة بنفسي ...

عادل : لا يا دكتور ، الحقيقة ليست على السرير ، الحقيقة هنا في الحوض (٤) ...

ويتصور الطبيب للوهلة اولى ان عادلا مصاب بشيء من الارهاق الجسدي والنفسي ، ولكن جواب عادل يأتي نفيا قاطعا لمثل هذا التشخيص :

الدكتور : أتحلم أحلاما مزعجة ؟

عادل : لا مزعجة ولا مفرحة ... لا احلم بالمرة (٥) ...

الرجل الذي لا أحلام له ، الرجل الفاقد رجولته ، لان الحلم عند الحكيم هو دوما حلم مذكر كما قلنا ، ولان الرجولة هي القدرة على صنع الاحلام في خاتمة المطاف . ولكن الطبيب سرعان ما يكتشف ان لعادل حلما أوحد ، حلمه بأن يصبح صرصارا . وقد يكون هذا حلما غريبا عجيبا لانسان متصرصر . ولكن الصرصار الذي يحلم عادل بأن يكونه هو الصرصار المكافح كفاحا جبارا للخروج من الحوض ذي الجدران الملساء ، الكفاح الذي يعني أننا لم نقل كلمتنا الاخيرة ، الكفاح الذي يعطي الفاجعة معنى التراجيديا :

عادل : اسمع يا دكتور ... أنظر جيدا الى هذا الصرصار ... وقل لي ماذا يصنع الآن ؟

الدكتور (ناظرا الى الحوض) : يصنع ماذا ؟.. لا يصنع شيئا ...

عادل : دقق النظر يا دكتور ... ألا ترى مثلا ان الصرصار يحاول شيئا ؟

الدكتور : طبعا ... يحاول الخروج من الحوض ...

عادل : عظيم .. عظيم .. وصلنا .

الدكتور (ينظر اليه) : وصلنا الى ماذا ؟

عادل : الى سر الموضوع كله (٦) ...

في الخروج من الحوض السر كله . ولكن لا بد قبل ذلك أن يفهم الطبيب سر الحوض نفسه . وها هو ذا يحاول ان يفهم :

الدكتور : أقدر أسأل ؟

سامية : طبعا يا دكتور ... تفضل !

الدكتور : ما هو اعتقادك في شخصية زوجك ؟

سامية : من حيث ؟

الدكتور : من حيث القوة والضعف ..

سامية : بالنسبة الى من ؟

الدكتور : بالنسبة اليك طبعا !

سامية : أنا ؟.. أعتقد ان شخصيته أضعف من شخصيتي ...

الدكتور : وهل هو يعرف ذلك ؟

سامية : مؤكد ...

الدكتور : هل قال لك ذلك صراحة ؟

سامية : لا ... ولكنه يعتقده في دخيلة نفسه ...

الدكتور : كيف عرفت ؟

---

(١) : المصدر نفسه ـ ص ٩١ ـ ٩٣ .

(٢) : المصدر نفسه ـ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٣) : المصدر نفسه ـ ص ١١٠ .

(٤) : المصدر نفسه ـ ص ١٢٣ .

(٥) : المصدر نفسه ـ ص ١٢٨ .

(٦) : المصدر نفسه ـ ص ١٢٥ .

سامية : انه يصرح دائما بأني متسلطة عليه ... واني أرغمه على أطاعة أوامري ... واني أضطهده ...

الدكتور : تضطهدينه ؟

سامية : هذا ما يقوله ...

الدكتور : اذن هو يعتقد أو يتوهم انك تضطهدينه ؟

سامية : نعم ...

الدكتور : تشخيصي في محله ...

سامية : أي تشخيص ؟

الدكتور : مسألة الصرصار هذه !

سامية : وما هي العلاقة ؟

الدكتور : أنت تريدين ابادة الصرصار ... وهو يريد انقاذه من يدك ...

سامية : تقصد يا دكتور ....

الدكتور : نعم ... انه في وعيه الباطن قد مثل نفسه بالصرصار ... وهذا هو سر اهتمامه به وعطفه عليه (١) ...

ولكن ما يكاد الطبيب يتوهم انه توصل الى سر الموضوع حتى يفاجأ بنفي قاطع من قبل عادل :

الدكتور : اسمع يا أستاذ عادل ... أولا زوجتك مخلصة لك كل الاخلاص ... صدقني ... انها تحترمك وتقدرك ... رغم اعتقادك ان شخصيتك أضعف من شخصيتها ...

عادل : شخصيتي أضعف من شخصيتها ؟.. من قال ذلك ؟..

الدكتور : لا ... لا أحد ... هذا مجرد افتراض ... احتمال ...

عادل : لم يخطر على بالي اطلاقا مثل هذا الفرض أو الاحتمال !

الدكتور : ربما مثلا .. تكون طلباتها ... أو ما يمكن أن تفهم انه أوامرها .

عادل : فعلا هي صاحبة طلبات وأوامر ... بل أكثر من ذلك تحكمات ... بل ورغبة في التسلط ...

الدكتور : أنت معترف بهذه النقطة ...

عادل : بالتأكيد ...

الدكتور : ترى اذن ان لها رغبة في التسلط ؟

عادل : طبعا ... مثل أغلب الزوجات ... خصوصا من كانت مثلها ، وتخرجت مع زوجها من نفس الكلية ... وتوظفت معه في نفس العمل ...

الدكتور : اذن المساواة بينكما تامة في كل شيء ...

عادل : في كل شيء ...

الدكتور : ومع ذلك تريد هي أن تمتاز ... وأن تتسلط وتتحكم ...

عادل : بالضبط ... حالة زوجتي ....

الدكتور : وأنت تركتها تتسلط وتتحكم ...

عادل : نعم ... أتدري لماذا ؟.. رغبة مني في ارضائها لانها امرأة ... امرأة ضعيفة ... فرحانة بشبابها ونهوضها ونبوغها ... لا أحب أن أصدمها في أعتقادها بتفوقها وقوتها ... اني أعتبر ذلك نذالة ... نذالة مني أنا الرجل القوي ... وأرى ان واجب الرجولة هو اشعارها بقوتها واهميتها ... ورفع روحها المعنوية (٢) .

وطبيعي أن يشعر الطبيب بالحيرة ازاء هذين التصريحين المتناقضين من قبل الزوج والزوجة . ولكنه اذا كان قد عجز عن فهم السر بعد أن كاد يضع أصبعه عليه ، فهذا يعود الى انه حاول أن يفهم سر الصرصار من وجهة النظر العلمية ومن زاوية علم النفس ، والى انه حاول أن يدرس حالة عادل وكأنها حالة شخصية ، فردية . ولو أنه نظر الى المسألة بغير هذا المنظار ، لو انه نظر اليها من زاوية « علم الحياة » أن صح التعبير لا من زاوية علم النفس الجزئي والمحدود ، ولو انه رأى في حالة عادل لا مجرد حالة نفسية فردية بل رمزا الى الوضع البشري نفسه ، أي أنه لو رأى في عادل الرجل ، وفي سامية المرأة ، في الاول آدم وفي الثانية حواء ، لكان أمكنه أن يدرك أنه أمام تراجيديا لا أمام دراما ، أمام قصة الانسان لا أمام قصة انسان . ولكان أمكنه أيضا أن يضع يده على سر التناقض بين تصريحي الزوجين بصدد القوة والضعف . ذلك ان أعتقاد عادل بأن زوجته أضعف منه شخصية ـ ولهذا على وجه التحديد يتركها تتحكم وتتسلط ـ انما هو تجسيد أمثل للعبة الرجل والمرأة . الرجل الذي يعتقد ان المرأة لعبته ، في حين انه في الواقع لعبة المرأة . وصيحة التحذير والتنبيه التي يطلقها الحكيم في « مصير صرصار » هي نفسها الصيحة التي أطلقها في العديد من المناسبات ، ومن قبيل ذلك يوم اتصل بحواء ، أم البشر ، بواسطة جهاز لاسلكي مفترض يمكن به الاتصال بالآخرة ، فدار بينهما الحوار التالي :

ـ اخبريني ، ما رأيك في موضوع منح المرأة حق الانتخاب ؟..اقصد حقها في أن تحكم وتسوس وتقود ...

ـ ومن قال لك اني لم أحكم ولم أسس ولم أقد ؟ من الذي قاد آدم من يده وأخرجه الى الارض ؟ لا تصدق امرأة تزعم غير ذلك ... لكل امرأة تفاحتها التي تقود بها الرجل !..

ـ قلت ذلك فلم يصدقوني ... لاننا في عصر نصدق فيه النظريات ولا نصدق الحقائق ... فاذا شاع مذهب يقول ان المرأة ضعيفة ، فيجب أن نصدقه حتى ولو رأيناها بأعيننا تمسك بيدها رجلا وتلقي به من حالق !

ـ من ذا الذي يسميني ضعيفة ؟ يبدو لي اني منذ عشت على الارض حتى اليوم ، وأنتم تعيشون في غلطة تغذيها دائما بلاهتكم معشر الرجال !.. وهي ان المرأة ضعيفة ... ما من امرأة ضعيفة ... انها تتظاهر بالضعف ، كما يتظاهر الرجل بالقوة (٣) !..

ولا غرو بعد هذا أن يكون الحكيم قد رفض علم النفس تحليلا وعلاجا ، لان المرض هو مرض وجودي ، وباء أزلي كان منذ أن كان أبوانا الاولان . وما تصرصر عادل في المسرحية الا رمز للسقطة الاولى ، سقطة آدم . وهذا المرض لا علاج له : قدر كتب على الانسان كما كتب على الصراصير أن تكون فريسة للنمل . انها مشكلة « قديمة قدم الازل » كما جاء في الفصل الاول و « لا تدخل في نطاق العلم والعلماء » . ولهذا حرص الحكيم على التأكيد بأن مسرحيته انما هي تراجيديا . وشرط التراجيديا كما قال الحكيم أن « تكون نهاية البطل نتيجة لصراعه مع قوة لا قبل له بها » . والنمل بالنسبة الى الصراصير ، والجنس بالنسبة الى البشر ، هما هذه القوة . والمسألة كلها كما قال عادل للطبيب هي ألا نيأس . ولان الصرصار لم ييأس ولم يستسلم رغم ملاسة جدران الحوض وبالتالي استحالة تسلقها ، لذلك وصفه عادل بأنه بطل وتمنى من كل أعماقه لو يكون مثله ... صرصارا . وهو اذ يرفض تشخيص الطبيب لحالته ، فلا لشيء الا لانه لم يتوصل بعد الى أن يكون صرصارا .

عادل : أسمع يا دكتور ... اذا اعتقدتم اني أشبه الصرصار فانتم مخطئون ...

الدكتور : طبعا ... وأي خطأ !.. أنا معترف اني أخطأت

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) : المصدر نفسه ـ ص ١٦٢ ـ ١٦٥ .

(٣) : « عصا الحكيم » ـ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

التشخيص ... معترف اني مخطىء ... وألف مرة مخطىء .

عادل : نعم .. خطأ جسيم .. لاني لا يمكن أن أصل الى المستوى الرائع الذي وصل اليه الصرصار .

الدكتور : ماذا تقول ؟.. المستوى الرائع ؟

عادل : نعم .

الدكتور : أأنت جاد ؟

عادل : كل الجد (١) .

أجل . الصرصار يريد أن يصير صرصاراً . هذه هي المفارقة التي أوصلتنا براعة الحكيم اليها في المسرحية . مفارقة متولدة عن اختلاط الرمز بالحقيقة والتباسهما . ولكن عن طريق هذه المفارقة أيضا استطاع الحكيم أن يرتقي بمسرحيته الى مصاف التراجيديا ، اذ أنها هي التي مكنته من أن يرفع كفاح الصرصار رمزا وواقعا الى مستوى العظمة المأساوية ، عظمة الكفاح بلا جدوى ولكن بلا يأس أيضا ضد قوى لا قبل لنا بها . والنهاية المفجعة من وجهة النظر هذه غير ذات همية ، ولا تبدل شيئا من عظمة البطل ، لان المهم ليس النهاية ، فالنهاية معروفة سلفا ، وانما المهم تصميمنا على مواجهة هذه النهاية وعلى محاولة درئها رغم انها مكتوبة علينا كالقدر .

ولقد تمثلت هذه النهاية بالنسبة الى الصرصار في الامر الذي أصدرته سامية الى أم عطية الطباخة بأن تملأ الحوض بالماء ، كما تمثلت في دلو الماء الذي سفحته أم عطية فوق جثة الصرصار ما ان تجمع عليها النمل . وكلمة الرثاء الوحيدة التي شيع بها هي تلك التي قالها عادل : « المهم هو كفاحه ... من أجل حياته » .

ويسدل الستار على المسرحية من غير أن ندري هل شيع عادل بكلمته هذه الصرصار حقا أم نفسه ؟ ولكن أليس عادل هو الصرصار ؟ أولم يكن قصد الحكيم من مسرحيته أن يرينا كيف يتحول الرجل الى صرصار ؟ واذا كان ما يزال لدينا شك ، فلنصغ الى المقطع الاخير الذي تنتهي به مسرحية « مصير صرصار » :

سامية (وهي داخلة الحمام) : اسمع يا عادل ... انت اليوم عندك اجازة (الاجازة التي منحه اياها الطبيب) ... يكون في معلومك ... أريد أن تمضي هذا اليوم في عمل نافع ... سامع ؟.. عندك ملابسي وفساتيني منكوشة في الدولاب ... اقعد رتبها وعلقها بالراحة .. واحدة .. واحدة . ارجع من شغلي ألقى كل شيء نظمته ورتبته .. مفهوم ؟

عادل : (في اطراق عميق) ؟ ...

سامية : سامعني ؟

عادل : سامع ...

سامية : واياك فستان واحد يطبق منك أو يتكرمش ... مفهوم ؟

عادل (صائحا) : مفهو ... و ... و .. م !

سامية : أنا حذرتك ...

(تدخل الحمام وتغلق عليها)

عادل (يصيح) : يا أم عطية ... هاتي الجردل والخرقة ... وأزيليني من الوجود (٢) !

جورج طرابيشي

---

(١) : « مصير صرصار » ـ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٢) : « مصير صرصار » ـ ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

دار الآداب تقدم

في الموسم الجديد القادم

مجموعة هامة من الكتب الجديدة

بين آدم وحواء

للمرحوم الدكتور زكي مبارك

●

الشعر الجديد ... لماذا ؟

تأليف صلاح عبد الصبور

●

مختارات من شعر علي محمود طه

تقديم صلاح عبد الصبور

●

عن الرجال والبنادق

بقلم غسان كنفاني

●

اصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

●

صورة الفنان في شبابه

رواية تأليف جيمس جويس

ترجمة ماهر البطوطي

●

الشوارع العارية

رواية تأليف فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

●

صحراء التتر

رواية تأليف دينو بوزاتي

ترجمة خليل الهنداوي وابراهيم المرجاني